الدين والحياة

القرآن ومنـــاهج المعرفة

للأستاذ حامد محمود الزفزى

من الأمانى السعيدة أن تصنع الشعوب مثالياتها . ومن حق كل شعب أن يناضل فى سبيل بلوغه هذه الغاية . وفى العصر الحديث تحاول الفلسفات القيادية سواء فى مجال الفكر والأدب أو فى مجال السياسة والاجتماع أن تخلق أيديولوجيات تحل محل المثاليات العتيقة ، وبمدى قرب أمة أو شعب من مثالياته أو تفاعله فى أيديولوجيته تكون قوته المتطورة ويكون كيانه الحى الذى يتعامل به مع الوجود .

والمساواة والإخاء والحرية ، وما يضمن عدم إهدار حق من الحقوق يساعد على التقريب بين الأفراد وبين مآربها فى حدود عدم الاعتداء . ذلك وغيره حقوق طبيعية كفلتها الدساتير وقامت من أجلها ثورات . وفى زحمة هذا العصر القلق يعلو الشرر المتطاير من أتون الحياة الصاعد . ولا نكاد فى هذه الظهيرة الحامية بحروبها الباردة نكاد لا نرى لهذه الحقوق الطبيعية أثراً فى الأخذ بيد الأمم المغلوبة . وانهاضها من كبوتها . لا نكاد نرى للعدل آثاراً حتى فى أروقة الهيئة العامة للأمم المتحدة التى هى آخر مطاف للجهود التى بذلت وتبذل من أجل العدل والحرية ومن أجل الوحدة العالمية وتلك الحقوق الطبيعية التى ينادى بها المشترعون والثوار وصانعوا الأيديولوجيات إنما هى [illegible] الواضحة والســـلوك السوى لاستجابة الإنسان للحياة . . . بهذا بدأ صاحبى حديثه واصلا ما انقطع من قصة الدين والحياة ثم عقب قائلا : فأين طريقة القرآن التى زعمت أنها خير منظم لاستجابة الإنسان للحياة .

قلت نعم يا صاحبى . القرآن الكريم هو كتاب الإسلام وطريق الحياة السعيدة . إذ هو يعلن فى أول نداء له . بجلاء وقوة ان أسباب الرقى وبلوغ الغايات النبيلة والأهداف السامية هى العلم . والتعلم « إقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان

من علق . إقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » . أول مبادئه العلم والتطلع إلى أسرار الحياة وخباياها . العلم بكل ما تتسع له هذه الكلمة من آفاق . الإنسان . المجتمع . الحيوان . النبات . الكون . الخ ويشير إلى أن هذا الاتجاه الحيوى بالنسبة لقوى الإنسان هو عماد وجوده المنتج وأنه بنفس السبب فضل على غيره من الكائنات فى استخلاف الأرض . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضها على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم . الخ هذه القصة التى بين فيها القرآن أن علم آدم بالاكتساب والخبرة وعلم الملائكة بالوحى والأول هو المطلوب للاستخلاف وعمارة الأرض .

لذلك كان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، ودرس علم خير من عبادة ستين سنة . أطلبوا العلم ولو بالصين . وكل ما يصل إليه العقل فى مجاله الإبداعى . الكونى والطبيعى والاجتماعى إنما نيط به خدمة البشرية على الإطلاق ، فليس ذلك لحساب أمة تدمر به أمة أخرى ولا أداة فى يد شعب يرهب به شعباً آخر . فنحن نشاهد اليوم آثار العلوم الذرية المرعبة وإحداثها الخوف والقلق فى نفس المجتمع العالمى الذى نتج عنه تفلسف رهيب كالوجودية مثلا .

وهكذا يرسم الإسلام للعقل طريق العمل ويدفعه إلى الكشف ولكن لحساب الخير العام والمصلحة الإنسانية .

ألست ترى يا صاحبى فى هذا تنظيما متينا وخطة صادقة وسلوكا قويما لاستجابة الإنسان . نحو التطلع وحب المعرفة . وهى غريزة فطرية وسلوك طبيعى . هذا نمط من التنظيم الدينى لاستجابة الإنسان للحياة .

ثم إقرأ معى قوله تعالى من سورة الحجرات . هذا النداء العام والتحديد التام لمكان الإنسانية فى نظر القرآن . « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله أتقاكم . . . الخ » .

إعلان الحقوق الطبيعية لبنى الإنسان . يا بنى آدم . المسلم وغير المسلم الأسود والأصفر والأشقر ، الرجل والمرأة . الصغير والكبير . يا أيها الناس أنتم متساوون فى البدء أنشأكم من الأرض بدءا بآدم من تراب وبعملية التسكرير من تراب الأرض بمصفاة الزرع والضرع ثم تكرنون حيوانات رقيقة جعلها فى قرار مكين . يخلقكم

فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق . ويقر فى الأرحام ما يشاء إلى أجل مسمى . ثم يخرجكم طفلا وهكذا المساواة المطلقة فى عمليات الايجاد والخلق هى بداية النظر إلى التقويم البشرى فى ضمان الحقوق وإعطاء الحرية والنداء بالمساواة .

إنا خلقناكم من ذكر وأنثى . ومهما تباعدت الدور واختلفت المناخات وتعددت الأزمنة . كل هذه العوامل التى ليست لها آثار إيجادية كونية وإن كانت لها رتوش فى الألوان واللغات والآثار .

جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . إنما سرت عليكم سنة الحياة من التفريق والتباعد وصرتم شعوبا مختلفة اللسان والسلوك الاجتماعى . وقبائل وكل فى فلك من التفكير يسبحون . ليس ذلك لتتنازعوا لأن نتيجة التنازع هى الفشل . والنظرة السريعة يا صاحبى لنتائج هذا التنازع البشرى هى ما نحن فيه من آلام وتفرقة عنصرية وظلم واستعمار وحروب .

ولكن كما قضت الإرادة الخالقة بهذا التباين فى الأزمنة والأمكنة أشارت إلى أن سبيل التجمع والتظاهر فى موكب النور . والسير نحو الغايات النبيلة إنما يكون بالتعارف .

التعارف السلمى العام . تعارف فى المشارب والآمال . وتعارف فى اللغات والآثار . تعارف فى كل مرفق من المرافق التى كشف عنها شعب من الشعوب أو فكرة نبتت عند قبيلة من هذه القبائل . بهذا التعارف العام يسير الموكب ويبلغ الغايات . وقد فهم الرواد الأوائل من المسلمين هذا . فراحوا يغترفون من بحار التعارف الانسانى من هنود ويونان ورومان وصين . وفى بوتقة هذا الفكر العربى المسلم انصهرت هذه الاتجاهات وأخرج المسلمون فلسفات عملية إبداعية كانت القاعدة المثبتة التى شيدت عليها المخترعات الحديثة كالفلك والطب والرياضة . الخ . الخ .

ليس فى خطة القرآن احتكار لأية معرفة من المعارف فى أى مرفق من المرافق لأية أمة من الأمم أو شعب أو قبيلة . ليست هناك طبقة الغرب الابداعية فى الفكر وطبقة الشرق الخاملة المرتمية فى أحضان الغيب . ليس هناك احتكار للذرة لتستخدم ضد الانسان نفسه . ليس هناك احتكار لحساب الأبيض على حساب الأسود والأصفر .

صدقنى يا صاحبى أن هذه المبادىء العفنة التى ما زال العالم يتعثر بسبب وجودها تنافى طريقة التنظيم الدينى وتنافى مبادىء السلام الاسلامى .

فإ هذا النداء بالأخوة الانسانية . وأن الوجود على هذه الصورة من الأمم والشعوب والقبائل إنما كان لتنطلق صفارة الأمان . وصوت السلام . ونداء السلم وهداية السماء . لتهتف بهذا الجمع أن تعالوا يا بنى آدم فتعاونوا على البر والتقوى . وكونوا عباد الله إخوانا .

ثم أليس فى هذا النداء [illegible] التجمع رسم للسلوك السوى واستجابة خيرة لغريزة الاجتماع التى فى الانسان . فهم يقولون . إن الانسان كائن اجتماعى بالفطرة .

وإذا كانت الأسرة مجتمعا منزليا . والأمة مجتمعا شعبيا . فإنما الانسانية هى المجتمع البشرى الكبير .

وإذا كان بعض الفلاسفة محدثين وقدماء قد نادوا بالحكومة العالمية وتبلورت هذه الأفكار فى تكوين عصبة الأمم السالفة وهيئة الأمم الحالية فإنما صنعت أيضا هذه المنظمات بأيد استعمارية استغلالية . وما زالت تعلو صفحة اتجاهها . وحادثة فلسطين ومأساة العرب المنكوبين الذين شردهم الاستعمار الانجليزى الكريه ، وتقع هذه المأساة عديمة النظير فى التاريخ كله تحت عين العالم وفى عصر التمدن والتحضير . هذا من جانب .

ومن ناحية أخرى فإن هذه العالمية لم تبين لنا طريقة السلوك الذى رسمته لاستجابة الانسان للحياة . مما جعلها نهبا لأفكار فردية أو اتجاهات شعوبية أو قيادات ثورية . وليست فى هذه التيارات كلها مايدانى أو يقارب مبادىء الاسلام الذى تضمنته آيات القرآن الكريم .

وهنا كان صاحبى الدكتور ح . م قد اشرأبت نفسه لأن يقاطع حديثى قائلا نيس فى تقرير أن العلم هو الطريق البناء فى حياة الانسان وأن الأخوة الانسانية حق طبيعى . ليس فى هذا كله جديد ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فالاسلام يتساوى مع غيره فى إطلاق الشعارات .

قلت نعم يا صديقى . يوم أن قال الدين ذلك وانطلق صوته من جوف الصحراء يجوب العالم وينادى بالبحث والكشف . إنما جعله الوسيلة القيمة لبلوغ العابد هدفه . إنما يخشى الله من عباده العلماء . انظر يا صديقى كيف ربط بين ظاهر الحياة وباطنها بالعلم . والعقل . إن هذه الطريقة جديدة لم تكن معروفة لدى الأديان السالفة ، وليس منهجاً من مناهج العلوم السابقة . ثم مبدأ خطير قلب العالم كله

واستجابت له الأمم والشعوب . والغريب أنه لم يقتصر ذلك المنحى على جماعة دون جماعة . بل نلاحظ أن أكثر مفكرى المسلمين الأوائل كانوا من جنسيات غير عربية .

وهذا يخالف النظرة الارستقراطية فى الفكر الإغريقى والكهنوت الهندى والطبقى المصرى القديم والجمود الرومانى . وإذن فهو مبدأ جديد وما زالت جدته ظاهرة وحيوية غضه حتى يشاء الله .

أما المساواة فقد كانت شعاراً للثورة الفرنسية فى القرن السابع عشر رغم أن تحديد هذه المساواة وإعطاء صورة كاملة عنها كان وما يزال غير موجود ومعروف وقلدت الشعوب الحديثة والثورات الأمريكية والروسية . الخ قلدت هذا الشعار . ولكن إذا عرفت أن هذا النداء بالمساواة إنما دوى فى العالم فى القرن السابع وقد باتت معالمه ووضحت طريقه .

إذا كان الأمر كذلك وهو لابد كذلك فإنما يكون القرآن الكريم هو المنبع الفياض الذى يجب أن يرده القادة والمشترعون . وبعد فالقرآن مبادئ عامة تنشد السعادة الإنسانية وتحافظ على إيجادها بالطرق السلمية وتربط بينها وبين الآمال الكونية الكبرى وذلك بتعريف الإنسان مكانه من الوجود .

وإلى اللقاء فى مقال قادم إن شاء الله . ؟